المحاضرة08:تجربة محي الدين باشطارزي المسرحية

تمهيد:

بدأ المسرح الجزائري مرحلة جديدة سنة 1926، وهي مرحلة ما يمكن أن نسميه بالمسرح باللغة العامية وذلك عندما عرض علي سلالي مسرحيته "جحا" باللهجة العامية، والحقيقة أن كل النصوص المسرحية التي جاءت في هذه الفترة تمتاز بعاميتها وخفتها وفكاهتها، حيث «قدم كل من علالو وزميليه القسنطيني وباشطارزي دورا كبيرا في نشاط المسرح الجزائري وتطوره، لا بالتمثيل وحده، ولكن بالتأليف المسرحي أيضا.»[i]

وبذلك فإن الريادة التاريخية لمؤسسي المسرح الجزائري تتوزع على ثلاث شخصيات مسرحية وهي، سلالي علي، والقسنطيني، وباشطارزي، فبفضل هؤلاء ومواهبهم وجهودهم تحقق لفن المسرح وجوده الجزائري، فولد ونما ثم أزهر وأثمر، حاملا فوانيس الإبداع المسرحي بخصوصيات شعبية جزائرية،[ii] ولعل محي الدين باشطارزي بعده واحدا من هؤلاء له خصوصيته التي ينماز بها بينهم من حيث تناوله للموضوعات وطريقة الطرح وحتى التمثيل، والهدف من هذه العروض المسرحية المقدمة.

أولا- لمحة إلى حياة محي الدين باشطارزي.

ولد محي الدين باشطارزي في 15 ديسمبر 1897 بحي القصبة بالجزائر العاصمة من عائلة جزائرية تركية الأصل، تعلم القرآن الكريم واللغة العربية على يد الشيخ قندوز ومفتي الجزائر العاصمة آنذاك الشيخ بوقندورة، بدأ حياته سنة 1910 كحزاب بالجامع الحنفي، ثم انضم إلى المجالس الغنائية للفن الأندلسي، بعد تعلمه للغناء الأندلسي على يد اليهودي "ناطون ايدمون يافيل" رئيس جمعية المطربية آنذاك، فلمع نجمه بين مطربي زمانه وأكسبه صوته الساحر الصداح شهرة واسعة.

ظل منشغلا بالغناء وحده إلى سنة 1932، ولاسيما الأندلسي منه، فكان يغني ضمن فرقته* ثم التحق بفرقة رشيد القسنطيني المسرحية وأسندت له أدوارا خاصة بوصلات غنائية، فحقق بذلك نجاحا كبيرا كما حدث في مسرحية "الصياد والعفريت"التي ألفها "علالو" سنة 1928، ولم يباشر مهمة التأليف المسرحي إلا بعد سنة 1932م.[iii]

أشرف باشطارزي على تسيير عدة فرق موسيقية ومسرحية، كفرقة "المطربية" التي بدأ نشاطه فيها عام 1919 ليصبح مديرا لها عام 1928 بعد وفاة رئيسها الأسبق، وكذلك فرقة "زاهية" التي

أسسها مع علالو، وألف واقتبس العشرات من المسرحيات نحو: جهلاء مدعين العلم، فاقو، بني وي وي، على النيف، الخداعين... وغيرها، ثم عين سنة 1947 مديرا لفرقة المسرح العربي بقاعة الأوبرا بالعاصمة إلى غاية 1956، حيث أغلقت القاعة.

ينضاف إلى ما سبق من نشاط غنائي ومسرحي تمثيله في العديد من الأفلام مثل: كنزي، الوصية، حسان طيرو،... الخ، ثم دون مذكراته بعد ذلك ابتداء من الثمانينيات والتي تشتمل مسيرة المسرح الجزائري من 1919 إلى 1974 في ثلاثة أجزاء صدرت تباعا أعوام 1969م، 1984م، 1986م، توفي رحمه الله- يوم 06فيفري 1986م بالجزائر العاصمة،[iv] تاركا زادا مسرحيا توعويا هادفا، رغم تميزه بالطابع الهزلي الساخر، وهو الذي احترف التمثيل والتأليف والاقتباس المسرحي.

ثانيا- خصوصية التجربة المسرحية لمحي الدين باشطارزي.

لقد تطور المسرح الجزائري على يد باشطارزي، وعرف انتشارا في مختلف مناطق الجزائر، رغم العراقيل التي وضعها الاستعمار الفرنسي في طريقه، وبعد أن تفطن لخطورة العروض التي كان يقدمها، والذي «كان يهدف إلى خلق تربية دينية... ولم يكن تجاريا، وكل مسرحياته تبين أنه كان يطمح إلى هدف وحيد، وهو الرفع المعنوي والأخلاقي للمسلمين»[v]، وبذلك استطاع أن يحترف «مهنة التمثيل، مضافا إليها التأليف المسرحي والاقتباس، ولعله الوحيد الذي صمد في الميدان المسرحي.»[vi]

ويتميز مسرح باشطارزي بطابعه الهزلي الهادف، والسياسي التوعوي الضمني، فهو ذو هدف مزدوج، حيث تصدى للظواهر الاجتماعية السلبية بأسلوب فكاهي هادف، فساهم بذلك في تنمية الوعي بمخاطر الاحتلال في بلادنا، كما عالج في أعماله المسرحية قضايا مكافحة الشعوذة وتعاطي الخمر والمخدرات، إلى جانب قضايا تتعلق بتوعية المرأة والمجتمع بصفة عامة بقضاياه المصيرية كلما سمحت الظروف بذلك.

لقد كتب واقتبس العديد من المسرحيات من "جهلاء مدعين بالعلم" التي كتبها بالفصحى سنة 1919م، مهاجما فيها الطرقية والشعوذة، إلى "بني وي وي" و"فاقوا" التي «تناول فيها بعض المواضيع السياسة والاجتماعية بالنقد الساخر... ينتقد فيها بعض البرلمانيين الجزائريين»[vii]، وهي ذات تلميحات سياسية تكشف القناع عن أولئك الانتهازيين، وكذلك الأمر في مسرحيته "بعد السكر" و"الخداعين"، فكان بذلك إلى جانب كونه فنانا بارعا، مثقفا وسياسيا محنكا يجيد المناورة وفن الممكن باستغلال الظرف المواتي[viii] ومسرح باشطارزي المنحصر بين 1934 و1939م لقي نجاحا كبيرا، ومرد ذلك إلى عدة عوامل أهمها:[ix]

1- قيام باشطارزي بالأدوار الرئيسية، والتي تعتمد على الغناء بالدرجة الأولى والفكاهة، وبمشاركة بعض الممثلين كرشيد القسنطيني وماري سوزان.

2-تكثيف الرحلات الثقافية والفنية داخل الوطن وخارجه لعرض مسرحياته لفترات زمنية طويلة، كرحلة أفريل سنة 1934 إلى ثماني مدن جزائرية، ورحلة ديسمبر في السنة نفسها سبعة مدن جزائرية، ثم رحلتي فيفري ومارس سنة 1935م إلى ثمانية وعشرين مدينة جزائرية، ثم جولة أفريل إلى فرنسا، وأخرى داخل الوطن في فيفري 1937 انطلقت من العاصمة إلى البليدة، البرواقية، البويرة، سطيف، قسنطينة، بسكرة، باتنة، خنشلة، تبسة، عين البضاء، عنابة، سكيكدة، القل، جيجل، بجاية، تيزي وزو، ثم العودة إلى الجزائر العاصمة بعد رحلة دامت قرابة شهر عرض فيها مسرحية "الخداعين".

3- طرحه للقضايا الشعبية التي كانت من اهتمامات الجماهير اجتماعيا وسياسيا، مما جلب له المتابعة و الملاحقة من قبل الإدارة الفرنسية التي لفت انتباهها هذا الإقبال الشديد، فظلت يقظة وتهتم حتى بالجزئيات البسيطة وتراقبها، حيث كان قسم من اليمين المتطرف معاديا للجبهة الشعبية، فطالب بتسليط العقوبات على القائمين على المسرح.

إن تحطيم الإدارة الفرنسية لفرقته وتشتيت نشاطه كان سببا في إضعاف فنه، خاصة وأنها كانت تمارس الرقابة على النصوص المسرحية، حيث منعت سنة 1937 عرض مسرحيات كثيرة منها" فاقو، الخداعين، بني وي وي، في عهد بلدية "غازان" Gazagne التي كانت قد عملت على توفيق نشاط فرقته في 2 نوفمبر 1937م.

كما قام الحاكم العام "لوبو" Lebeau باتخاذ قرار الحظر الذي ظل ساري المفعول لمدة عامين، إذ لم يستأنف باشطارزي نشاطه إلا في 2 نوفمبر 1939 بعد تدخل محاميه، وهذا بعرضه مسرحية "الحاج قاسي مجند"، والتي تناولت قضية تجنيد الجزائريين في الحرب العالمية الثانية إلى جانب الحلفاء، كما أنتج عدة سكاتشات قصيرة، قدمها من "راديو الجزائر".[x]

ومع ذلك فقد ظل باشطارزي يسعى من خلال نشاطه المسرحي إلى هدفين، الترفيه والتوجيه التربوي والسياسي لإيقاظ الوعي، حيث كان يعالج القضايا السياسية بصفة ضمنية لاقتناعه بأن الجمهور الجزائري مُسَيّس يفهم الرسالة من المعاني والتلميحات،[xi] خاصة وأنه يستقي موضوعاته غالبا من الواقع الاجتماعي والسياسي للجزائريين آنذاك.

ثالثا- الإنتاج المسرحي لمحي الدين باشطارزي.

يعد محي الدين باشطارزي من أعلام المسرح الجزائري ولقد ألف عدد كبيرا من المسرحيات في «طابع جزائري من حيث المواقف والأحداث والشخصيات... فمحي الدين باشطارزي ابتكر شخصيات ومواقف تتناسب مع الظروف الاجتماعية التي عبرت عنها مسرحياته»[xii]، ثم إن الاقتباس عنده إبداع، فهو يأخذ الفكرة ويصيغها بالطابع الجزائري، لأن عبقريته تكمن في الاقتباس فقد كان يأخذ الفكرة والبناء الفني للنص، ويعالجهما بأسلوبه الخاص انطلاقا من مواقف وعادات وتقاليد جزائرية عربية وإسلامية.

لقد اقتبس بطلب من حكومة "فيشي" مسرحيات فرنسية كثيرة عن موليير كما اقتبس مسرحيات أخرى من التراث الثقافي العربي كحكايات ألف ليلة وليلة، واقتبس بعض المسرحيات من أعمال زملائه كمحمد منصالي، ورشيد القسنطيني.... الخ،[xiii] وعليه فإن اقتباسه لم يكن مقصورا على الغربيين فقط ممثلا في موليير، وإنما كان اقتباسا منوعا وثريا من التراث العربي الإسلامي عامة، ومن التراث الشعبي الجزائري خاصة، ليطور بذلك المسرح الجزائري ويرسي تقاليده في المجتمع الجزائري. والجدول الآتي يوضح الإنتاج المسرحي لباشطارزي[xiv]:

الرقم	عنوان المسرحية	عدد فصولها	تاريخ عرضها	موضوعها
01	الجهال المدعون العلم	/	1924م	تدور حول رجال الطرقية
02	الجزائر وتونس	/	/	تدور حول العلاقات بين الجزائر وتونس
03	الفقير	/	8 جانفي 1934م	كوميديا مع رشيد القسنطيني
04	الهماز	/	1934م	كوميديا مع محمد هامل
05	البوزريعي في العسكرية	/	1934م	كوميديا مع لويس شابرو
06	فاقوا	/	1934م	مسرحية يدعو فيها الشعب لليقظة
07	على النيف	/	1934م	موضوعها لزواج المختلط

08	حاجة حليمة	/	1934م	مسرحية صغيرة
09	بني وي وي	3	28 نوفمبر 1935م	الجزائريين المنتخبين في البرلمان الفرنسي وهو يساندون ولا يعارضون
10	حب النساء	4	مارس 1936م	واقع المرأة ومكانتها في المجتمع الجزائري
11	زواج بالهاتف	3	1936م	كوميديا بالدارجة والفرنسية
12	بعد السكرة	/	10 أكتوبر 1936	صورة الجزائريين الذين يتعاملون مع فرنسا
13	الخداعين	3	جانفي 1937	مسرحية
14	شمسون الجزائري	/	1937	فكرة الزواج بالأجنبيات
15	النساء	/	25 أكتوبر 1937	مسرحية تعالج صورة الجزائريين
16	الكذابين	3	جويلية 1938	/
17	طبيب الصقلي	1	1939م	/
18	سحار بالسيف	2	1939م	/
19	ما ينفع غير الصح	3	1939م	/
20	هي وإلا أنا	2	1939م	/
21	بوشن شالة	3	1939م	/
22	قدما تجري	3	1939م	/

لئن توفي هذا العلم المسرحي، فإن تراثه ظل حيا يعكس تطور المسرح الشعبي في الجزائر، كما يعبر عن صور المقاومة الوطنية للمستعمر انطلاقا من الركح ونشاطه في مجال الغناء والطرب والإذاعة والتلفزيون، ينضاف إليها التمثيل في عديد الأفلام السينمائية، فعلى يديه اكتملت التجربة المسرحية الجزائرية، وأصبح لها وجودها الحقيقي في ظروف استدمارية قاسية وصعبة وقاهرة.